

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

مناهج البحث في علم الاجتماع عند ابن خلدون

Research methods in sociology of IbnKhalidun

*1 حدة عمران ، 2 ماجدة عمران

1 جامعة زيان عاشور بالجلفة، omranehayat15@gmail.com

2 جامعة زيان عاشور بالجلفة، psycoomrane@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/09/01

تاريخ القبول: 2020/08/01

تاريخ ارسال المقال: 2020/07/14

* المؤلف المرسل: عمران حدة ، omranehayat15@gmail.com

الملخص:

لم يكن علم الاجتماع معروفا قبل ابن خلدون ، الذي اهتم بدراسة مختلف الوقائع الاجتماعية في ضوء طبائع العمران واتفاقها مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما، فحدد موضوعه في دراسة العمران البشري والاجتماع الانساني، منطلقا من محاولته لفهم التاريخ البشري، وتأثره بالتقلبات السياسية الحاصلة في عصره، إلى أن توصل إلى تأسيس علم يكون بمثابة مقدمة لفهم التاريخ البشري، لذا يتبادر لنا التساؤل التالي: ماهي أسس منهج ابن خلدون في دراسة التاريخ الاجتماعي؟

الكلمات المفتاحية:

مناهج علم العمران البشري، ميادين علم العمران البشري، التاريخ، خطوات المنهج.

Résumé:

La sociologie était inconnue avant Ibn Khaldoun, qui était intéressé à étudier les diverses réalités sociales à la lumière de la nature de l'urbanisation et de son accord avec le moment et le lieu où elles se déroulaient. Il a identifié son sujet dans l'étude de la civilisation humaine et de la société humaine, à partir de sa tentative de comprendre l'histoire humaine, Pour établir une science qui serve d'introduction à la compréhension de l'histoire humaine, nous en venons à la question suivante: Qu'est-ce qui a fondé le programme d'études d'Ibn Khaldun dans l'étude de l'histoire sociale?

les mots clés:

Méthodes de l'architecture humaine, domaines de l'architecture humaine, histoire, Étapes du programme

مقدمة:

يعتبر التراث مرآة الشعوب للعالم ويشكل ذاكرة للثقافة والشعب ، ولأن حاجة الشعوب الدائمة لمراجعة تراثها وربطه بحاضرها والاعتزاز به كونه من مقوماتها الشخصية، من أجل تعزيز مكانتها بين الأمم والشعوب لما فيه من ثراء، سطره الكثير من العلماء والشخصيات وجب علينا أن نحاول فحصه بمنظار معاصر، يساعدنا على الاستفادة مما وصلت إليه أساليب البحث ومناهج الدراسة في عالمنا الحاضر، مع توجيه النظر إلى اهتماماتنا المعاصرة وما نواجهه من ظروف وتحديات.

نصل من خلالها لتأصيل كيان الأمة الاسلامية وتبيان مكانتها في التاريخ ووضعه على خريطة الحاضر لكي نعبر إلى المستقبل لنبين ما ينبغي أن يكون لنا من دور في بناء الحضارة الانسانية، ومن أبرز هذه المحطات والشخصيات ضمن تراثنا العربي، فكر العلامة بن خلدون الذي كان له أثر واضح في تحقيق أبعاد الانسانية في مجال تطوير العلوم على المستوى الانساني، فكان رائدا في مجال المعرفة الانسانية، بمنهجه العلمي في التحليل والاستنتاج وقوله بالتحتمية التاريخية وبيانه من خلال أطوار الازدهار والانحصار للحضارات الانسانية عبر مختلف العصور، ودوره في

اكتشاف وارساء منهج لعلم جديد سماه علم العمران البشري، والذي هو محل دراستنا هذه ، والذي سنتطرق إليه من خلال التعرف على سبقه في الاكتشاف والتنظير لموضوع ومنهج له، لم يتطرق إليه أحد من سابقه، وتأخر المنظرون الأوروبيون في اكتشافه بمآت السنين بعده.

1- مفهوم علم العمران البشري عند بن خلدون

قبل أن نتطرق الى تعريف علم العمران البشري لدى العلامة بن خلدون لابد لنا ان نتعرف على خلفية التكوين العلمي والتربوي لصاحبه من خلال التعرف على حياته.

1-1- ابن خلدون في سطور:

ولد عبد الرحمن ولي الدين بن خلدون بتونس عام 732هـ / 1332م من أسرة اشتهرت بالعلم والسياسة، تتقن ابن خلدون ثقافة إسلامية تعلم في المساجد وحفظ القرآن وتعلم فقه اللغة ومختلف العلوم، كانت أسرته ذات نفوذ سياسي وعلمي في الأندلس والمغرب، شغل مختلف الوظائف العامة والمناصب السياسية ودرّس في الأزهر، وتوفي بالقاهرة عام 808هـ / 1406م.

هو مفكر وابن بيئته ، فقد عاش في بيئة سياسية وعلمية ولها خصوصيتها في شمال افريقيا في القرن الثامن الهجري، غير مستقرة نظرا للتوترات والانقسامات والهجمات الصليبية والتترية ، ومع ذلك فقد شهدت تلك البيئة ظهور مؤلفات أصولية نقدية وتصحيحية لبعض فروع المعرفة الإسلامية مثل التصوف الذي كان الدين قد اختلط فيه بالفلسفة مما أدى إلى انحرافات عقيدية وعلمية، ونتيجة لذلك ظهر الفقه الصوفي من أمثال الغزالي وأبو بكر بن العربي وبدأت تظهر معالم نسق معرفي شرعي جديد متكامل بين فقه الظاهر وأفعال القلوب، كما انتشر المذهب المالكي بالمغرب بتشجيع من السلطة السياسية، وعرفت العلوم التقليدية على عكس العلوم الطبيعية ازدهارا في تلك الحقبة لكون ضرورة علوم الوحي تسبق ضرورات المعاش.

ولما كان ابن خلدون قد جمع بين التحصيل العلمي والتدريس والوظائف الادارية والسياسية والقضاء¹ ، فان ذلك التكوين كان له التأثير في شخصيته وفي صوغ أفكاره وابداعه، بالإضافة إلى القدرات الفطرية والتي تتحقق بالممارسة، والتي تحمل في طياتها الدين والسلوك والعمل والابداع.

1-2- تعريف علم العمران البشري:

يؤكد اختيار بن خلدون مصطلح العمران كاسم للعلم الذي أبدعه، على أصالة صلته بالوحي وتوافقه مع معاييره في المعرفة، وله أصول قرآنية مرتبطة بمفهوم الاستخلاف فقد وردت مفردة العمران في القرآن الكريم بمشتقاتها سبعة وثلاثين مرة بدلالات متنوعة ومعنى العمارة أنها نقيض الخراب يقال عمر الأرض عمارة قال تعالى: " وعمروها أكثر مما عمروها"(سورة الروم:09) وغيرها من الآيات المختلفة الدلالات،² ومعنى هذا أنه ليس صحيحا أن ابن خلدون قد نحت مصطلح العمران وأبدعه، بل استمده من المفاهيم القرآنية.

لقد اتخذ بن خلدون من مفهوم العمران مفتاحا لتفسير ظواهر عمرانية عديدة سياسية، واقتصادية وعلمية وتربوية وأخلاقية، وارتبط هذا المفهوم في المقدمة بمجموعة من القضايا المتميزة في دلالتها وعلاقتها ببعضها البعض.

ورأى بن خلدون أن معرفة العلم بطبائع العمران هو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة حتى يعلم أن الخبر ممكن في نفسه أو ممتنع، وبهذه القاعدة المنهجية حدد بن خلدون شبكة من المفاهيم المساعدة منها: الطبائع والأحوال والعوارض الذاتية وعلل الكوائن والأسباب والشروط ومبتدأ الأحوال والمقدار.

أما مفهوم المعرفة فقد وسع بن خلدون المفهوم الدلالي لها باستعماله بدل العلم، كما استعمل مفهوم (الصناعة) بمعنى الملكة في أمر عملي فكري يختص بأمر المعاش، وقدمها على مباحث العلوم لكونها تعتمد في بدايتها على معارف بسيطة يوفرها العمران البدوي قبل الحضري، واعتبر المعلومات والمعرفة من جملة الامكانيات العلمية التي اختص الله الانسان بها، فكل معرفة لا تشبع حاجة إنسانية معرفة مردودة، وأقطاب منهجه هنا هي: **الوحي والواقع والخبر**، وبتكيزه على مآلات تحصيل المعرفة يكون تفكيره أقرب ما يكون إلى التفكير المقاصدي المستخلص من الوحي، والربط ما بين العلم والعمل، وخلاصة القول أن فكر بن خلدون التزم معايير الرؤية التوحيدية والاستيعاب والجمع والكلية والسعي لتحقيق مقاصد الشريعة، واعتبار حوادث العمران البشري، مع الوعي بمحدودية العقل واحتياجه إلى نور الوحي³.

اكتشاف علم العمران البشري:

أدرك بن خلدون عند كتابة مقدمته أنه يقوم بمحاولة غير مسبوق إليها من قبل وهي علم العمران البشري، أو الاجتماع الانساني (علم الاجتماع حديثا) فيقول: "وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الانساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته (القوانين)، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا." ⁴ ثم يستطرد في زهو كونه أول من اكتشفه فيقول: "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه بالبحث، وأدّى إليه بالغوص، وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقتنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه، ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية، إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، وليحمل الجمهور على منهج يكون فيه حفظ النوع ولقائه، فقد خالف موضوعه موضوع هذين العلمين اللذين ربما يشبهانه.

ثم يرجع ليؤكد بأنه علم مستنبط ومنتزع فيقول: "وكأنه مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام من منحاه لأحد من الخليفة. (ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الضن بهم، أو لعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه، ولم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل..."، ثم ينتهي الى أن الله هو الذي ألهمه هذا العلم فيقول: "ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا من بكرة وجهينة خبرة، فان كنت قد استوفيت مسأله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني من شيء في احصائه واشتبهت بغير مسأله، فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل أنني نصححت له السبيل، وأوضحت له الطريق، والله يهدي بنوره من يشاء." ⁵

مما سبق يتضح أن بن خلدون كان يهدف إلى تلخيص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة فهده ذلك إلى اكتشاف علم جديد هو علم الاجتماع هو علم الاجتماع ونجد أن بن خلدون يعطي عدرا للمؤرخين قبله وذلك أنه إلى عهد لم تكن ظواهر الاجتماع قد درست دراسة وصفية ترمي إلى طبيعة الظواهر وما تخضع له من قوانين ، وإنما درست هذه الظواهر ولأغراض أخرى علمية ويقرر بن خلدون أن لا يمكن عصمة المؤرخ من هذه الأخطاء إلا باكتشاف هذه القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ، بمعنى آخر أن هدف علم الاجتماع هو التعرف على طبيعة طائفة من الظواهر والإمام بقوانينها ، بالإضافة إلى ذلك يرى بن خلدون لعلم الاجتماع أهداف كثيرة غير مباشرة.⁶

1-3- موضوع علم العمران البشري:

من الشروط الأساسية لتأسيس أي علم مستقل : تحديد موضوع مستقل له واضح المعالم والبحث فيه ممكنا، ولقد اتجه بن خلدون في تحديد موضوع علم العمران، فبدأ بنقد المنهج السائد في علم التاريخ، منبها إلى أنه يقوم على بعدين : ظاهري يتمثل في الأخبار المنقولة والحوادث المشهودة، وباطني يحتاج إلى نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها بدقة وعمق.

فطن ابن خلدون إلى أن هناك طائفة من الظواهر لا تنتمي إلى العلوم المادية، ولكنها تنتمي إلى الاجتماع الانساني، وحده وأنها تنشأ عن هذا الاجتماع بحكم طبيعته لا بأي مصدر خارج عن الاجتماع، وقد أطلق بن خلدون على هذه الظواهر الاجتماعية اسم "واقعات العمران البشري" أو أصول الاجتماع العمراني، فقد أدرك بن خلدون أهم خصائص هذه الظواهر وهي أنها حتمية وأنها خارجة عن شعور الأفراد وأنها ذات قوة قاهرة وأنها تنشأ عن طبيعة الاجتماع الإنساني، وأنها قوالب للتفكير والسلوك والعمل.

ومن الملاحظ أن ابن خلدون لم يحاول تعريف هذه الظواهر وأنه اكتفى بالتمثيل لها في مقدمته إذ يقول: " أنه لما كانت طبيعة التاريخ أنه خير عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر على بعض وما ينشأ عن ذلك كله من الملك والدول ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة من الأحوال ..."، ويقول بن خلدون أيضا: " ونحن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع ".⁷

وإذا كان دور كاييم قد رأى أن علم الاجتماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

- المورفولوجيا الاجتماعية : أي تركيب المجتمع من السكان وأنواع تجمعهم وأثر البيئة الجغرافية في حياتهم.
- الفيسيولوجيا الاجتماعية : وتنقسم إلى عدد من الأنظمة مثل الاجتماع الاقتصادي والسياسي والأخلاقي والتربوي.
- علم الاجتماع العام: ويقوم باكتشاف الطابع العام للوقائع الاجتماعية والقوانين العامة التي تحكم الحياة الاجتماعية.

هناك من يرى أن بن خلدون قد فطن إلى تلك الأقسام الثلاثة التي ذكرها دور كايم ولهذا نرى أنه يقسم الكتاب الأول من المقدمة وهي الخاص بطبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من الملل والأسباب، أي اهتم بن خلدون بدراسة أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر وغيرها من شؤون الاجتماع وهذا ما أسماه دوركايم علم البيئة الاجتماعية "المورفولوجيا الاجتماعية".⁸ ومن تقسيمه لأبواب المقدمة تظهر فطنته وسبقه لتقسيمات مختلف فروع علم الاجتماع والخوض في كل جانب منها وبالمنهج الواجب اتباعه عند دراستها ، حيث بسّط بن خلدون في المقدمة كل ما لديه من علم ومعرفة، فجاءت شيئاً ثميناً، بل متقدمة جداً على العصر الذي كُتبت فيه، وهي تحتوي على ستة فصول كما يلي:⁹

- **الباب الأول:** " في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض" وهذا ما يطلق عليه حديثاً علم الاجتماع العام ويتناول ظواهر المجتمع البشري والقواعد التي تحكم مسيرته واتجاهاته.

الباب الثاني: "في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية" ويتناول ما يطلق عليه حديثاً علم الاجتماع البدوي، ويسعى إلى كشف أهم خصائصه المميزة، ويؤكد أنه هو أصل المجتمع الحضري وسابق له.

- **الباب الثالث:** " في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية "، وهذا ما يقابل حديثاً علم الاجتماع الاقتصادي، ويتناول فيه تأثير الظروف الاقتصادية وسبل كسب العيش على أحوال المجتمع وتطويره.

- **الباب الرابع:** " في العمران الحضري والبلدان والأمصار"، ويقابله حديثاً علم الاجتماع الحضري، ويشرح فيه جميع الظواهر المتصلة بالحضر، وفي نظره أن الحضر هو غاية التمدن.

- **الباب الخامس:** " في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه "، وهو ما يقابل حديثاً علم الاجتماع الاقتصادي، ويتناول فيه تأثير الظروف الاقتصادية وسبل كسب العيش على أحوال المجتمع وتطوره.

- **الباب السادس:** " في العلوم واكتسابها وتعلّمها " وهو ما يطلق عليه حديثاً علم الاجتماع التربوي، ودرس فيه بن خلدون الظواهر التربوية وطرق التعلم وتصنيف العلوم ، كما درس الاجتماع القانوني رابطاً بين السياسة والأخلاق.¹⁰

وقد علل ابن خلدون تقديمه العمران البدوي على ما سواه لأن العمران سابق عليها جميعاً، وقدم المعاش على العلم ، لأن الأول من الضروريات والثاني من الحاجات أو الكماليات.

1-4- وظائف علم العمران: لعلم العمران وظائف تتصدّرها:

أولاً- وظيفة أصولية ومنهجية: وجوهرها هو انقاذ علم التاريخ من الثغرات المنهجية الناجمة عن الجهل وعدم استيعاب المؤرخين طبيعة الخبر التاريخي والوقوع أسرى لمآرب شخصية، يمزرون في سبيلها أخباراً دون تمحيص ونقد، فهو أراد لعلم العمران أن يكون بمثابة (علم العلم) الذي يضبطه منهجياً وينتقد من خلاله أسس العلوم الأخرى ونتائجها العلمية وتطبيقاتها العلمية، فالخبر قضية تحمل الصدق أو الكذب عن أي علم. فعلم العمران

بذلك هو علم لعلوم متعددة لديه القدرة على تفسيرات شاملة لقضاياها الكبرى، وتجريدها في قوانين ومبادئ كلية ثابتة تستمد صدقها من معارف الوحي ومن الواقع معا.

ثانيا- وظيفة عقدية وعمرانية: عبر الوظيفة المنهجية يقوم علم العمران بوظيفة عقدية وعمرانية، فهو ليس علما ماديا محضا، بل متلبس بنور قيم وتصورات عقائدية إسلامية مركبة في جذور المعرفة تمثل النور الخفي الذي صاحب عقل بن خلدون في بحثه وتفكيره وكل ما قدمه من تفسيرات حول الانسان والعمران والمعرفة والنتائج العلمية التي يقدمها ليست مجردة كالتى يسيطر عليها النسق الفلسفي اليوناني، بل هي علم عملي يتوجه للواقع ليغيره وفق مبادئ الوحي اليقينية الثابتة.

2- التصور المنهجي لمنهج بن خلدون:

1-2- مفهوم المنهج لدى بن خلدون:

الحق أن بن خلدون كان لديه منهجا واضحا في فهم الظواهر الاجتماعية في ذاتها وكما هي في الواقع دون أن يتأثر برأي سابق أو بهدف إلى إصلاح اجتماعي أو انشاء مدينة فاضلة وأنه اعتمد في دراسته على الملاحظة والاستقراء التاريخي والاستدلال المنطقي، واستخدام كافة العلوم لتأييد أو رفض رأي المؤرخين، هذا بالإضافة إلى ارتحاله ومشاركته في الوظائف العامة والسياسية، وقد يلجأ بن خلدون إلى الاستقراء التمثيلي للحكم على صدق ما تبين من صدق قضية جزئية كذلك كان متأثرا بعلماء الهندسة المحدثون في الاستدلال على نظرياتهم، فهم يعنون كل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة من القوانين التي انتهى إليها. ثم يأخذ في الاستدلال عليها، ولا يفتقر في هذا الاستدلال على ما شاهده أو اطلع عليه في كتب التاريخ من ظواهر اجتماعية تدل على صحة القانون الذي يناقشه، بل يلجأ كذلك أحيانا إلى الاستدلال المنطقي الخالص وإلى التعليل بمقائيق العلوم أو علم النفس حسب طبيعة الظاهرة التي يعالجها.

بالإضافة فإن بن خلدون غالبا ما يمهّد فهمه للظواهر والأحداث الاجتماعية ببحوث ودراسات تمهيدية، ولهذا يخص بعض الفقرات على هذه الدراسات قبل أن يتناول البحث موضوع دراسته.¹¹

2-2- خطوات المنهج في علم العمران البشري:

هدف العلم عند ابن خلدون هو جمع المادة العلمية واعطاء عللا وأسبابا لتفسير الحوادث ثم الوصول إلى القوانين العامة، وفي هذا يقول ابن خلدون عن عمله أنه استوعب أخبار الخليقة استيعابا، وذلك من الحكم النافرة صعبا، وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا، وللوصول إلى هذا يتبع ابن خلدون الخطوات التالية:

- الاعتماد على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.
- تعقب الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره.
- تعقب أشباهها ونظرائها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها.

- موازنة هذه الظواهر جميعا والتأمل في مختلف شؤونها للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرقية وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات التي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية وعلل تطورها واختلافها.

- استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر من قوانين.

ويلاحظ أنّ بن خلدون أقام منهجه العلمي على ثلاثة دعائم رئيسية هي:

أ- ملاحظات حسية: يشمل جميع البيانات الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات.

ب- التأصيل التاريخي: بالرجوع إلى التاريخ.

ت- عمليات عقلية يجريها على هذه المواد ويصل بنقلها إلى الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، (مما يصل إليه بن خلدون يريد أن يكون منسجما مع الواقع ، وهو يريد ليكشف عن التحقيق قناعا ألا يلوذ بغير البراهين الطبيعية فيرفع حججا).¹²

2-3- أنواع المناهج عند بن خلدون :

كما سبق ذكره فان بن خلدون قد استخدم العديد من المناهج العلمية التي تخدم الظواهر العلمية التي يدرسها ومن بين أهم هذه المناهج نذكر ما يلي:

أولا: المنهج التجريبي:

يعتمد ابن خلدون على المنهج التجريبي الوضعي الاستقرائي الذي يسير عليه دوركاهم في أبحاثه السوسولوجية، متتبعا الخطوات التالية:

- التشكيك في الآراء السابقة أو الشائعة بفحصها ونقدها وتحقيقها والتثبت منها؛

- ملاحظة الظواهر المجتمعية أو المجتمعات التي رآها وزارها وعاشها ملاحظة علمية دقيقة قائمة على الخبرة والواقعية والاستقراء والتأمل العقلي؛

- صوغ الفرضيات والقضايا الاجتماعية الكبرى في شكل عناوين فرعية للبرهنة عليها منطقا واستدلالات؛

- تفسير الفرضيات والقضايا الكبرى بشرحها وتوضيحها والاستدلال عليها تمثيلا ومقارنة وموازنة وتعليلًا وتثبتًا ومشاهدة وتباينًا؛

- استنتاج القوانين والعوارض وتعميمها في شكل نظريات مجردة عامة مستقاة من الواقع التجريبي الملاحظ والمرصود بالرؤية والخبرة والمعاشة؛

- تتبع الظواهر المجتمعية في مختلف مراحلها التاريخية المتعاقبة، وتفسير آثارها بعلمها وأسبابها وحتمياتها؛

- استعمال منهجية المقارنة والمماثلة والموازنة والمقايسة لإيجاد أوجه التشابه والاختلاف بين الشعوب التي احتك بها والتي لم يحتك بها؛

- ربط المتغيرات المستقلة والتابعة بعلمها وأسبابها بغية استخلاص القوانين، وتعميمها في شكل نظريات وعوارض (قوانين).

- الانطلاق من الجبرية أو الحتمية التاريخية في قراءة المجتمعات البشرية، وخاصة أثناء انتقالها من حالة البداوة إلى حالة الحضارة؛

- التآرجح بين الاستنباط والاستقراء في تحصيل النتائج أو تثبيتها والبرهنة عليها.¹³

ثانيا المنهج الاستقرائي:

اعتمد الاستقراء، ولكن لا لاستخلاص النتائج، بل لتأييد النتائج التي يضعها أولا: هناك ملاحظات جزئية يصوغها ابن خلدون في صورة حكم عام يضعه أولا، والغالب ما يكون ذلك عنوانا لفصل، ثم تأتي بعد ذلك استقراءات جزئية أخرى تحاول أن تبرهن على صحة ذلك الحكم العام. إن الأمر يتعلق إذا بالقياس الأصولي (قياس الغائب على الشاهد، قياس الجزء على الجزء) الذي كان الطريقة الاستدلالية السائدة في مختلف العلوم العربية الإسلامية. والشيء الجديد عند ابن خلدون هو صياغته لهذا القياس في صورة براهين هندسية أضفت عليه طابعا استنباطيا شكليا. ذلك ما جعل منهج ابن خلدون يبدو في الظاهر تجريبيا استقرائيا وهندسيا استنباطيا ولكن دون أن يفرض أي شروط أي منهما.¹⁴

كانت قمة استقراءاته عندما بين أن لا فرق بين الذكاء البدوي والحضري وإنما يرجع الفرق في التحصيل فنجدته يقول: "... ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو، كيف نجد الحضري متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى أن البدوي ليضنه أنه قد فاتته في حقيقة إنسانية وعقلية؟ وليس كذلك وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية، ما لا يعرفه البدوي، فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها، وحسن تعليمها، وضمن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها، وليس كذلك فإذا نجد من أهل البدو من هو أعلى مرتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرتة، إنما ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم..."¹⁵

ثالثا: الطريقة الاستنباطية:

وظف ابن خلدون الطريقة الاستنباطية بالانتقال من الكل والعام إلى الجزء والخاص، أو الانتقال من العناوين الافتراضية الكلية إلى الشروح والتفسيرات الجزئية، بغية التثبت والاستدلال وإقناع الغير بصحة الفرضية أو صحة الرأي المعروض بناء على الوقائع والتجارب والأحداث التاريخية والظواهر المجتمعية المختلفة.¹⁶

رابعا: المنهج التاريخي:

يرى بنخلدون أن دراسة التاريخ ضرورية لمعرفة أحوال الأمم، وتطور هذه الأحوال بفعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية حيث يقول: "واعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفائدة، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم و سياستهم، ... فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متعددة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، لم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني، ولا قيس الغائب بالشاهد، والحاضر بالذهاب ... وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم

يعرضها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهاها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فظلوا عن الحق وتاهوا في بידاء الوهم والغلط...¹⁷ وقد تميز البحث التاريخي عنده بما يلي:

- ملاحظة ظواهر الاجتماع لدى الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها أو العيش بين أهلها.
- تعقب هذه الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره.
- تعقب أشباهاها في تاريخ شعوب أخرى لم يتم الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.
- الموازنة بين هذه الظواهر جميعا.
- التأمل في مختلف الظواهر للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية.
- استخلاص قانون تخضع له هذه الظواهر (في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع).

وقد استخدم أيضا الكثير من المناهج المتداخلة الأخرى مثل:

المنهج الوصفي: وهو أكثر مناهج البحث ملاءمة لدراسة الوقائع والظواهر الاجتماعية خاصة اذا كان صاحب المقدمة ملما بمعرفة طبائع العمران.

والمنهج المقارن: فالحاجة إلى عقد مقارنات لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بين الظواهر الاجتماعية.

2-4- مصادر المنهج العلمي عند بن خلدون:

استند فكر ابن خلدون، على مستوى المنهج العلمي، إلى مجموعة من المصادر التي يمكن حصرها في: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والتأمل العقلائي، والخبرات التجريبية، والمعاشية الصادقة، وعلم الكلام والفلسفة، والفقهاء والأصول، والمنطق، والتاريخ...

أما فيما يخص منهجية عرض بحوثه وأفكاره، فيعتمد ابن خلدون على طريقة علمية تبدأ بتقسيم الكتاب إلى أبواب كبرى، وتفرع كل باب إلى عناوين فرعية في شكل قوانين وفرضيات ومسلمات ونتائج توصل إليها الباحث بمحض التجربة والتأمل الفلسفي والاختبار العقلائي، وبعد ذلك ينتقل بن خلدون إلى الشرح والتوضيح والاستدلال المنطقي والتاريخي والواقعي، بغية تثبيت فرضيته أو استنتاجه الذي وضعه في العنوان.¹⁸

يقول علي عبد الواحد وافي: "وأما طريقة عرضه في المقدمة لما انتهت إليه بحوثه فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التي يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة في عرض نظرياتهم. فهو يعنون كل فقرة في بحثه بقانون أو فكرة من القوانين أو الأفكار التي انتهى إليها كما يفعل علماء الهندسة المحدثون، إذ يجعلون نص النظرية نفسها عنوانا للفصل، ثم يأخذ في بيان الحقائق التي استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة، أي يأخذ في الاستدلال عليها، كما يفعل علماء الهندسة المحدثون في الاستدلال عن نظرياتهم. ولا يقتصر في هذا الاستدلال على ما شهدته أو اطلع عليه في بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية تدل على صحة القانون الذي هو بصدده، بل يلجأ كذلك أحيانا إلى الاستدلال المنطقي الخالص إن كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق الدليل العقلي وإلى

التعليل بحقائق العلوم الطبيعية أو علم النفس إن كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق هذه الحقائق...¹⁹

ومن هنا، تبنى منهجية ابن خلدون على مجموعة من المراحل والخطوات الإجرائية، مثل: عملية تحديد الموضوع، وعملية التحقيق(الجرح والتعديل)، وعملية المعيشة، وعملية الملاحظة، وعملية الافتراض، وعملية الاستدلال والاستقراء والاستنباط، وعملية التأريخ، وعملية المقارنة والموازنة، وعملية الوصف والتحليل، وعملية التصنيف، وعملية التقويم، وعملية الاستنتاج، وعملية التقنين والتقييد، وعملية التعميم... هذا، وقد اعتمد ابن خلدون على ترسانة من المفاهيم والمصطلحات الاجتماعية، متأرجحا، في تحليله الاجتماعي، بين النقل والعقل، بين التأمل والتجربة، بين الوحي والواقع الميداني، بين الاستقراء والاستنباط، بين التاريخ والعمران البشري...²⁰

2-5- ابداع بن خلدون في ارساء قواعد منهجه

إنّ كلمة "الإبستمولوجيا حسب لالاند" تعني الدراسة النقدية للمبادئ والنتائج الخاصة بالعلوم ، بهدف معرفة أصولها المنطقية، قيمها وثقلها الموضوعي"، فهي إذن عبارة عن المبحث الذي يعالج معالجة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروعها ونتائجها بهدف ارساء أساسها المنطقي ، كما أنه يشهد بتجديد قيمة العلوم ودرجة موضوعيتها²¹، والملاحظ لمنهج بن خلدون في مقدمته يجد أنه يرمي من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال، وتطلق كلمة القوانين في العرف العلمي على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها اللازمة، أو بعبارة أخرى التنبؤ بحدوث نتائج معينة لازمة إذا حدثت أسباب خاصة ، وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها، أو كما يقول مونتيسكيو التي تعبر عن العلاقات الضرورية التي تنجم عن طبائع الأشياء.²² يمكن أن نلخص أهم مرتكزات منهجه كالتالي:

- تساؤله الدائم عن العلل والأسباب للحوادث والوقائع وتفريقه بين التاريخ وفلسفة التاريخ : فنجده يقول: " إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للأفان والأجيال والأعصار، فهو أسُّ للمؤرخ تبنى عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره "23. "... وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال." 24

- القيام باستقراء النظريات الكثيرة الخاصة بالعمران البشري ثم يحاول أن يقرب بين التنظير والتطبيق فيحاول إدراك ظاهرة التحول الاجتماعي فيقول: " أن أحوال الأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فذلك يقع في الأفان والأقطار والأزمنة والدول." 25

- تحري الصدق والدقة في النقل يبحث الأسباب للابتعاد عن التحريف والزيف، اذ يقول: " ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول وتعاصر الأمم الأول، وأسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة، ومدينة وحلة، وعزة وذلة، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة وكسب واضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جملة، وأوضحت براهينه وعلله".²⁶
- البحث عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى تطور الظواهر (المتقلبة المتغيرة) واختلافها باختلاف الأمم والعصور والكشف عن القوانين التي تخضع لهذا التطور وهذا الاختلاف، اذن فلا بد من أخذ الحيطة والحذر والقصد في قياس الغابر على الحاضر.
- اهتمامه في ربط العلاقة بين الأسباب والمسببات، فيقول: " اننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط للأسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض".²⁷
- تفتنه إلى معيار الحقيقة في نقل الأخبار والروايات في علم العمران البشري، وما له من طبائع في أحواله، ومن خلاله يستطيع التمييز بين الحق والباطل والمبتدع والمصطنع، الذي زيف به الكثير من المؤرخين صفحات وأحداث التاريخ. حيث يقول: " وأما الاخبار عن الوقائع فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه، وصار فيها ذلك أهم من التعليل ومقدما عليه، إذ فائدة الأشياء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه...".²⁸
- استعمال بن خلدون مصطلحات اجتماعية متميزة خاصة به، مثل الصراع والتعاون والتكيف والبدو، والحضر، والعمران والعوارض الذاتية، وعلم العمران البشري، وعلم السياسة المدنية، والاجتماع الإنساني، والأمم والوحشية والعصبية، والمراتب السلطانية، والدول العامة، والملك والخلافة، والمعاش والصنائع والكسب، والطبائع والأحوال والتوحش والتأنس، والتغلبات...²⁹

الخاتمة:

ونخلص في الأخير أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون كان ظاهرة فريدة، سبق من عاصره بأفكاره ومنهجه وموضوعه الذي لم يسبقه أحد إليه ألا وهو علم العمران البشري الذي حدد موضوعه وقسم أنماطه ثم وضع له منهجا يتبعه الدارس، وبذلك يكون قد عمل على تخلص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة فهدها ذلك إلى اكتشاف علم جديد هو علم العمران البشري كعلم مستقل عن الفلسفة ومن زيف الروايات باستعمال منهج علمي مبني على قواعد، ساعده على ذلك تكوينه الشخصي وسعة علمه واطلاعه وتعدد مصادر المعرفة لديه وكثرة حله وترحاله بين الأقطار والأمصار ومعرفته بمنطقة المغرب العربي، وتنوع المناصب التي شغلها.

إن من الحقائق الظاهرة أن أحدا قبل بن خلدون لم يعرض لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة تحليلية أدت إلى نتائج ومقررات مثل التي أدت إليها دراسة بن خلدون، حيث درس الظواهر الاجتماعية من خلال الاخبار التاريخي السليم مثلما يدرس العلماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك، وهو بذلك يكون أول من أحضع الظواهر الاجتماعية لمنهج علمي، انتهى به إلى كثير من الحقائق الثابتة التي تشبه القوانين، وعليه فإن ما توصل إليه بن خلدون من نظريات يبقى عملا رائدا في ميدان الدراسات الاجتماعية في مسيرة الفكر الانساني.³⁰

ولقد أدرك ابن خلدون أن العلم لا ينتهي بإنسان واحد أو بكتاب واحد فيقول: "بتواضع العلماء "عزما أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه فقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاء له، ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم متين يغوص في مسائله على أكثر مما كتبناه فليس على مستنبط العلم استقصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا إلى أن يكتمل"³¹

وفي الاخير يمكن التوصل إلى النتيجة أن بن خلدون كان رائدا في عصره فالكثير من الأفكار الابداعية التي توصل إليها لا تزال تستخدم إلى يومنا هذا سواء في دراسة التاريخ أو دراسة علم الاجتماع وتتنفق مع ما ينادي به علم الاجتماع وعلم النفس وعلوم التربية في العصر الحديث، كما تظهر شخصية بن خلدون وتميزه عن باقي علماء عصره وتمحيصه للحقيقة بالطرق العلمية كما ربط بين الدين والعلم الجديد.

لذا ينبغي على المجتمع العربي أن يعطي لابن خلدون وأفكاره المكانة اللائقة التي يستحقها من خلال تدريس أفكاره ومناهجه للطلاب وأن لا يكون مجرد تعداد لمناقبه في المناسبات، فأتذكر أن أستاذنا مغربي عبد الغني حينما قال: " أنه لم يكن أحد في الجزائر يعترف بابن خلدون عندما كنت أكتب عنه وأعدده المكتشف والمنظر لعلم الاجتماع، إلى ان احتفلت به اسبانيا في الذكرى المئوية السادسة لوفاته سنة 2006م اعترافا بفضله الكبير وتأثيره على مسيرة الفكر الانساني بحضور الكثير من رؤساء العالم خاصة بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط " ، لذا فالاعتزاز بالتراث الثقافي لا يكفي إن لم يرافقه تجسيد في الواقع بتدريسه وتثمينه عند الأجيال.

الهوامش:

- ¹ صالح بن طاهر مشوش ، قراءة تلخيص السيد عمر ، علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية في صياغته ، دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون ، المعهد العالي للفكر الاسلامي ، بيروت، 2013، ص 5
- ² مهور باشة عبد الحليم ، التأصيل الاسلامي لعلم الاجتماع مقارنة في إسلامية المعرفة، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة سطيف 02، 2013-2014م، ص302.
- ³ صالح بن طاهر مشوش، المرجع السابق، ص 32.
- ⁴ عبد الرحمان بن خلدون ، تحقيق حامد أحمد الطاهر، مقدمة ابن خلدون ، دار الفجر للتراث، ط1، 2004، ص 58.
- ⁵ عبد الرحمان بن خلدون ، المرجع السابق، ص ص 60- 61.
- ⁶ محمد أحمد بيومي، تاريخ التفكير الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، 2003، ص 143.
- ⁷ عبد الرحمن بن خلدون ، مرجع سابق، ص 55
- ⁸ محمد أحمد بيومي، مرجع سابق ، ص ص 144-145.
- ⁹ محمد إبراهيم أحمد عكة، أثر شخصية ابن خلدون في إبداع علم العمران البشري (علم الاجتماع) ، جامعة فلسطين الأهلية، دراسة بدون سنة نشر، ص 12
- ¹⁰ محجوب محمد الحسن، جهود العلماء المسلمين في ارساء المنهج العلمي، دراسات تربوية العدد 6، جامعة افريقيا العالمية، أكتوبر 2017، ص 187.
- ¹¹ محمد أحمد بيومي ، المرجع السابق، ص ص 145 - 147
- ¹² محمد أحمد بيومي، المرجع السابق، ص ص 145 - 147
- ¹³ جميل حمداوي، ابن خلدون ،المؤسس الأول لعلم الاجتماع، شبكة الألوكة، www.alukah.net، ص 30
- ¹⁴ جميل حمداوي، المرجع السابق، ص 32
- ¹⁵ محمد جابر عبد الواحد حمد ، منهج بن خلدون العلمي وأثره في العلاقة بين المعرفة والأخلاق، المؤتمر الدولي الثاني عشر للفلسفة الاسلامية، مناهج العلوم وفلسفتها من منظور إسلامي ، من 24-26 أبريل 2007 ، جامعة القاهرة ، ص 407.
- ¹⁶ جميل حمداوي، مرجع سابق ، ص 38
- ¹⁷ عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق ، ص 21
- ¹⁸ جميل حمداوي، مرجع سابق ، ص 33.
- ¹⁹ علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع ، تحضة مصر، القاهرة ، بدون تاريخ نشر ، ص: 81-83.
- ²⁰ جميل حمداوي، مرجع سابق ، ص 38.
- ²¹ مليكة جابر، اسهام الابستيمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، العدد الثامن جوان 2012، الجزائر، ص 394.
- ²² محمد جابر عبد الواحد حمد، مرجع سابق، ص 401
- ²³ عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق ، ص 55
- ²⁴ عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق، ص 51.
- ²⁵ عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق ، ص 48.
- ²⁶ عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق، 47
- ²⁷ عبد الرحمن بن خلدون ، المرجع السابق، ص
- ²⁸ عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق ، ص 58.
- ²⁹ جميل حمداوي مرجع سابق، ص 36 .
- ³⁰ صالح بن طاهر مشوش ، قراءة تلخيص السيد عمر ، علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية في صياغته ، دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون ، المعهد العالي للفكر الاسلامي ، بيروت، 2013، ص 5
- ³¹ مهور باشة عبد الحليم ، التأصيل الاسلامي لعلم الاجتماع مقارنة في إسلامية المعرفة، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة سطيف 02، 2013-2014م، ص302.